

كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، والصيام جُنَّةٌ ، فإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفثْ ولا يصبخ ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل : إني صائم ، إني صائم . والذي نفس محمد بيده ، لخلوف^(١) فم الصائم ، أطيب عند الله من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه »^(٢)

إضافة تشريف وتكريم :

في هذا الحديث يروي لنا النبي ﷺ عن ربه عز وجل ، في الحديث القدسي أنه سبحانه يقول : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به » . هذه الإضافة من الله سبحانه وتعالى ، إضافة الصيام إلى ذاته تقدس وتعالى ، إضافة تشريف وتكريم ، كما يقال : بيت الله . للمسجد أو الكعبة ، وكل الأرض لله عز وجل . وكما يقال عن ناقة صالح : ناقة الله . وكل الثوق وكل الأشياء إنما هي ملك لله عز وجل .

(١) الخُلوْف : بالضم بمعنى : تغيرُ الفم هو المشهور الذي صرح به أئمة اللغة ، وحكى بعض الفقهاء والمحدثين فتحها ، واقتصر عليه الدُميري في شرح المنهاج ، وأظنه غلطاً ، كما صرح به جماعة ، وقال آخرون : الفتح لغة رديئة ، والله أعلم . (تاج العروس : ١٠٠/٦) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) ، كلاهما في الصيام ، كما رواه أحمد (٧٦٩٣) ، والنسائي (٢٢١٦) ، وابن ماجه (١٦٣٨) ، كلاهما في الصوم ، عن أبي هريرة .

عبادة لم يُعبد بها غير الله :

فالإضافة للتشريف والتكريم ، وإنما كرم الله الصوم فنسبه إلى نفسه ، دون العبادات كلها ، لما لهذه الفريضة من خاصّة لا توجد في غيرها .
هذه العبادة لم يُعبد بها غير الله سبحانه . . . كل العبادات قد عبت بها الآلهة المزيّفة ، والأصنام التي عبدها المشركون على مر العصور .
الصلاة ، كم جعلت لغير الله ، فرُكع وسُجد لغير الله!
الدعاء ، كم دُعي غير الله!
القرايين ، والصدقات ، كم قُدمت لغير الله تعالى؟!
ولكنه لم يُعرف أنه قد صيم لغير الله تعالى . هكذا قال العلماء . . .
وقالوا أيضاً : إنّ في الصوم خصيصة لا توجد في غيره ، وهو أنه لا رياء فيه ، أي أن فعل الصوم لا رياء فيه ، حيث إنه مجرد إمساك وكفٍّ ، وامتناع .
والإمساك والامتناع لا يُرى ، فهو شيء سلبي ، لا يراه الناس ، ولهذا لا تدخل المراءة في الصوم ، إلا إذا أخبر الإنسان عن نفسه أنه صائم .
أما عمل الصوم نفسه ، فليس مما يُرى ومما يُحس .

أجر الصائم :

فالصوم عبادة خالصة لله عز وجل ، فاستحق أن يُنسب إليه سبحانه ، ثم هناك أمر آخر ، وهو : ما في هذه العبادة من مشقّة ، حيث يُجيع الإنسان بطنه ، ويُظمئ نفسه ، ويدع شهواته كلها لله سبحانه .

وهذا ما جاء في الحديث الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه وغيره : « كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله : إلا الصيام فهو لي ، وأنا أجزي به . يدع الطعام من أجلي ، ويدع الشراب من أجلي ، ويدع لذته من أجلي ، ويدع زوجته من أجلي . . . »^(١).

(١) رواه ابن خزيمة في الصيام (١٨٩٧) ، وقال الأعظمي : صحيح ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧٨) .

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذي يتولى جزاء الصائمين بنفسه ، هو الذي يُعطيهم بيده ، والكريم إذا أخذ على نفسه أنه هو الذي يعطي فإنه يجزل ، ولا يدع ذلك لو كلاته ، ولا لخزائنه ، وإنما يتولى الأمر بنفسه ، وعطاء الله لا حد له ، فهو أكرم الأكرمين ، والغني الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما . . .

تفاوت جزاء الأعمال :

الأعمال تتفاوت في جزائها ، هناك عمل بعشرة أمثاله ، وهناك عمل بسبعمائة ضعف ، وهناك عمل بمثله ، وهناك عمل لا يعلم جزاءه إلا الله^(١).

إنَّ الله قال في الصَّابِرِينَ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الْأَصْبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠) . فثواب الصبر ليس له حساب يُعلم من كثرته ، « والصوم نصف الصبر »^(٢) ، ومن هنا كان جزاء الصائمين لا حد له^(٣).

الصيام جُنَّة :

ثم يقول النبي ﷺ في تَمَّة هذا الحديث مُبَيَّنًا نوع الصيام الذي يستحق أن ينسب إلى الله ، وأن يكون جزاؤه غير محدود عند الله سبحانه ، فقال : « الصيام جُنَّة » .

والجُنَّة هي الدَّرْع والتَّرس ، الذي يستتر به الإنسان في الحروب ، حتى لا تتناوشه السهام والنبال ، فهو يقي صدره ، ويحفظ نفسه بهذه الجُنَّة . كذلك

(١) فالمراد بقوله « وأنا أجزي به » : أنني انفرد بعلم ثوابه وتضعيف حسناته .

(٢) رواه أحمد (٢٣٠٧٣) ، وقال محققوه : صحيح لغيره ، وهذا إسناد رجاله ثقات غير جري ابن كليب النهدي ، والترمذي في الدعوات (٣٥١٩) ، وقال : حديث حسن ، وعبد الرزاق في الجامع (٢٠٥٨٢) ، والدارمي في الطهارة (٦٥٤) ، والبيهقي في الشعب باب محبة الله (٦٣١) ، عن جري النهدي عن رجل من بني سليم ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٠٩) .

(٣) ولابد من التنبيه إلى أن الصوم الذي هذا فضله وجزاؤه عند رب العالمين ، وهذا مقام صاحبه ، إنما هو الصوم الخالص لله عز وجل ، السالم من شائبه المعاصي القولية والفعلية .

الصيام ، كما جاء في الحديث : « الصيام جُنةٌ أحدكم من النار ، كجُنةٍ أحدكم من القتال »^(١) ، وفي حديث آخر : « الصيام جُنةٌ ، وحِصْنٌ حصين من النار »^(٢).

فهو درع يقي صاحبه من الإثم والمعاصي في الدنيا ، ويقيه من النار في الآخرة وهذا ما لم يَخْرُقْ هذه الجُنة . . . كما جاء في الحديث : « والصوم جُنةٌ ما لم يخرقها »^(٣) ، وفي رواية : « الصيام جُنةٌ لأحدكم ، ما لم يخرقها » . قالوا : وبم يخرقها ، يا رسول الله؟ قال : « بكذب أو غيبة »^(٤).

يخرق هذه الدرع بالغيبة ، بالكذب ، بالمعاصي التي تخذش الصيام ، وتجرحه وتزيل آثاره . . .

فلا يؤدي إلى التقوى ، التي هي ثمرة الصيام ، وربَّها الله عليه في كتابه حيث يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

(١) رواه أحمد (١٦٢٧٣) ، وقال محققوه : حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل محمد ابن إسحاق ، والنسائي (٢٢٣٠) ، وابن ماجه (١٦٣٩) ، وابن خزيمة (١٨٩١) ، وابن حبان (٣٦٤٩) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، أربعتهم في الصيام ، والطبراني في الكبير (٥١/٩) ، عن عثمان بن أبي العاص الثقفي .

(٢) رواه أحمد (٩٢٢٥) ، وقال محققوه : صحيح وهذا إسناد حسن ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٧١) ، عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد وإسناده حسن (٤١٨/٣) .

(٣) رواه أحمد (١٦٩٠) ، وقال محققوه : إسناده حسن ، والنسائي في الصيام (٢٢٣٣) ، والطيالسي (٢٢٧) ، وعبد الرزاق (٧٨٩٥) ، وابن أبي شيبة (٨٩٩٢) ، كلاهما في الصيام ، وأبو يعلى (١٨٠/٢) ، وابن خزيمة في الصيام (١٩٤/٣) ، والحاكم في معرفة الصحابة (٢٩٧/٣) ، وسكت عنه هو والذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب الجنائز (٣٧٤/٣) ، عن أبي عبيدة بن الجراح ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ، وفيه بشار بن أبي سيف ولم أرَ من وثقه ولا جرحه وبقيّة رجاله ثقات (٢٧/٣) .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٤٥٣٦) ، عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه الربيع بن بدر ، وهو ضعيف (٤٠٠/٣) ، وقال الألباني في ضعيف الجامع : ضعيف جداً (٣٥٧٩) .

تأثير المعاصي على الصيام :

ومن هنا ذهبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى أن مَنْ كذب أو اغتاب في صيامه ، فقد أفطر ، وعليه أن يعيد يوماً بدل هذا اليوم . وأخذ بهذا الإمامان : الأوزاعي والثوري (الأول إمام الشام ، والآخر إمام العراق) بأنه من كذب أو اغتاب فقد بطل صومه ، وعليه أن يقضي يوماً مكان اليوم ، كما جاء في الحديث الآخر : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »^(١) ، أي لا قيمة لصومه عند الله عز وجل .

هذا هو قول هؤلاء الأئمة : عائشة وهذين الإمامين^(٢) .

وقال جمهور الفقهاء : إنه ليس عليه أن يعيد يوماً مكان هذا اليوم ، ولكنه حُرِمَ المثوبة والأجر . . . حُرِمَ أجر الصيام ، وما أخيب إنساناً ، وما أضيعه حين يظل طول اليوم جوعان ظمآن ، ثم يأتي في النهاية ولا أجر له ، ولا ثواب له^(٣) . وهذا هو الخائب المحروم حقاً .

حفظ الصيام من الرفث والصخب :

ثم يقول النبي ﷺ : « فإذا كان يومُ صومٍ أحدكم ، فلا يرفث ولا يصخب » . أي : عليه أن يحفظ صيامه من الرفث ، وهو الكلام في الأمور الجنسية ، وكل كلام قبيح .

« ولا يصخب » : أي لا يصيح ، ولا يرفع صوته على الناس ! ليضبط أعصابه ، ليملك أمر نفسه ، ولا يجعل صومه شجاراً ، ويجعل يومه قتالاً مع الناس .

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣) ، وأحمد (٩٨٣٩) ، وأبو داود (٢٣٦٢) ، والترمذي (٧٠٧) ، وابن ماجه (١٦٨٩) ، ثلاثهم في الصوم ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر : فيض القدير (٢٥٠/٤) .

(٣) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (فقه الصيام) ص ٨٦ ، وما ذكرناه في (فتاوى معاصرة) تحت عنوان : تأثير المعاصي على الصيام (٣٠٩/١) .

لا . . . فإنما جعل الصوم لتربية الإرادة ، وتهذيب الأنفس .

ادفع بالتي هي أحسن :

« فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إني صائم . . . إني صائم » : أي لا ينبغي أن يقابل السيئة بالسيئة ، وإنما يقابل السيئة بالحسنة ، ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٥، ٣٤: فصلت).

وإذا كان هذا في شأن الناس جميعاً ، فهو في شأن الصائم أجدر وأولى . . .

من هنا علمنا النبي ﷺ أن نقول إذا دافعنا إنسان ، أو شاتمنا ونحن صائمون . . . ألا نرد عليه الشتيمة بمثله ، وأن نقول هذا القول : اللهم إني صائم . . . وليكررها مرتين إن شاء .

هل يقولها بلسانه أم يقولها بقلبه؟ أم يقولها بلسانه وقلبه معاً؟ هذا هو الأولى : أن يقولها بقلبه ولسانه .

يقول ذلك لنفسه ، يخاطبها ، ويخاطب صاحبه أيضاً ، فيكف بذلك خصمه ، ويكف بذلك نفسه عن الاستجابة لداعي الغضب ، وإلى غريزة المقاتلة ، التي تجعل من الإنسان سبعاً ووحشا مفترساً .

ولا يليق بالصائم أن يتشاجر ، وأن يتقاتل مع الآخرين ، وأن يستجيب للغضب والشهوة . فهذا هو الصيام المقبول ، وليس الذي يساب الناس ويشاتمهم بدعوى أنه صائم . كأنما شرع الله الصيام ليفسد الأخلاق !!

خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ :

هذا هو الصائم الذي يقبله الله ، والذي حلف النبي ﷺ : أَنَّ خُلُوفَهُ « أَطِيبٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ » .

وخلوفه . . هي رائحة فمه المتغيرة من ترك الطعام والشراب طول النهار ، هذه الرائحة التي قد يَنْفِر منها بعض الناس ، هي أطيّب عند الله من ريح المسك^(١) .

للصائم فرحتان :

ثم ختم النبي ﷺ الحديث ، بهذه البشارة للصائم : بالفرحتين اللتين جعلهما الله للصائم يفرحهما : فرحة في الدنيا ، وفرحة في الآخرة .

فأما الدنيا فهو « إذا أفطر فرح بفطره » : أي فرح بأنه عادت إليه الحرية في الأكل والشرب والتمتع بطيبات الحياة الدنيا ، فيزول جوعه وعطشه ، ويفرح أيضاً بأن الله وفقه لإتمام صوم يوم من الفريضة المفروضة عليه ، فهو فرح طبيعي ، وهو فرح ديني أيضاً^(٢) .

(١) قال القاضي عياض رحمه الله ٤ : ١١٢ : « يجزيه الله في الآخرة حتى تكون نكهته أطيّب من ريح المسك . . . قبل : بل ينال صاحبها من الثواب ما هو أفضل من ريح المسك عندنا . . . » .

وهذه الأُطْيَبُ لريح خلوف الصائم حاصلة في الدنيا وفي الآخرة ، جمعاً بين أدلة الإمام العز ابن عبد السلام الذي رجّح أنها في الآخرة ، وأدلة الإمام الصلاح الذي رجّح أنها في الدنيا ، وإن كان قوله « .. عند الله يوم القيامة » يؤيد قول ابن عبد السلام .

وأجاب العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي في « إتحاف أهل الإسلام بخصوصيات الصيام » ص ٤١-٤٢ عن سبب هذه الرائحة الطيبة : « إن لكون الصيام سرّاً بينه وبين ربه في الدنيا ، فأحبّ أن يظهره بإظهار أثره في الآخرة علانية للخلق ، ليشتهر فضل الصوم ، وتمتاز مراتبهم ، وجزاء لإخفائهم صيامهم في الدنيا . . . وقيل : إنه إشارة إلى أن من عبّد الله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل : ينشأ من عمله آثار مكروهة للمتقي في الدنيا ، وهي محبوبة لله وطيبة عنده ، فأخباره بذلك للعالمين في الدنيا في تطيب لقلوبهم .. » .

(٢) كما أن من دواعي فرح الصائم عند فطره : إجابة الله تعالى دعاءه . روى الترمذي (٣٥٩٢) عن

أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا تردّ دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزّتي لأنصرّك ولو بعد حين » . هنا لفظ الترمذي « الصائم حين يفطر » ، أما لفظ الإمام أحمد ٢ : ٣٠٥ ، ٤٤٥ ، وابن ماجه (١٧٥٢) : « الصائم حتى يفطر » أي : إن دعاءه مستجاب ما دام صائماً ، فإذا أفطر توقفت الخصوصية ، ولا تعارض ، إنما هي زيادة في الوقت الذي يستجاب فيه دعاء الصائم ، هل هو عند فطره فقط ، أو من أول صومه حين فطره . والله أعلم .

ثم تبقى الفرحة الكبرى يوم القيامة ، حيث يفرح إذا لقي ربه بصومه ، إذا جازاه الله ، الذي يقول : « الصوم لي وأنا أجزي به » . إذا نادته الملائكة فيمن تنادي : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ٢٤) . إذا فُتح له باب الريان . . . الذي لا يدخل الجنة منه إلا الصائمون فإذا دخلوا أغلق . . . ولم يدخل منه أحد بعدهم^(١) .

* * *

(١) إشارة إلى الحديث : « إن في الجنة باباً يقال له : الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون؟ فيقومون ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلن يدخل منه أحد » ، متفق عليه : رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) ، كلاهما في الصوم ، كما رواه أحمد (٢٢٨١٨) ، والنسائي في الصيام (٢٢٣٦) ، عن سهل بن سعد .